المحاضرة الأولى بعنوان:

"تاريخ الفكر اللساني في الحضارات القديمة: نماذج مختارة"

كتب السير ويليام جمس مايلي: "..اللغة السنسكريتية (**संस्कृतम्**)؛ أيًّا كان تعلّقها بالعصور القديمة، هي هيكل رائع؛ أكثر كمالاً من اليونانية، وأكثر غزارة من اللاتينية، ومصقولة بذوق أرفع من كليهما، وإنّها لتحمل لكليهما تقاربًا أقوى، سواء في جذور الأفعال أو أشكال النحو، من أن يكون قد تمّ إنتاجهما بطريق الصدفة قوية جدًّا في الواقع، على أنّه لا يوجد متعدّد لغات يمكنه دراستهم مع بعضهم بعض دون ظن منه أنهن نشأن من مصدر واحد، والذي ربما لم يعد موجودًا، هناك منطق مماثل وإنّ لم يكن ذلك قويًا تماما يجعلنا نفترض أنّ كلاً من اللغة القوطية ولغات السلتيك على الرغم من تمازجهما في لغات مختلفة جدًّا إلاّ أنّ هما المصدر نفسه مع السنسكريتية، واللغة الفارسية القديمة يمكن إضافتها إلى العائلة نفسها..."[1]

مقدمة:

لا يمكن لأيّ باحث حصيف عن الأصول والأنظمة الفكرية المحورية في علم اللغة إلاّ أن يتأمل بإجلال عظمة التراث اللساني الإنساني عبر المرحل المختلفة والتي تمّ تأريخها وتدوينها أو روايتها، كما أنّ الحيرة تقدّم نفسها جاهزة كبديل ضروري عن الحقيقة المطلقة عند القيام بمحاولات صياغة المعايير المناسبة لوضع الحدود المنهجية الدقيقة التي انفصلت أو اتصلت فيها أهمّ النظريات والأفكار والملاحظات الصامدة أمام المشكلات الفعلية التي سادت مجمل الدرس اللغوي....الخ، وبناءً على وجهات النظر التي نتبناها فإنّ عدم الحسم الذي ركب طبع (ج. مونان)[2] هي أكثر الآراء منطقية في التأريخ الفعلي لبداية قصة اللسانيات.

---

[1]- **السير وليام جمس** (*1746/1794*م) مستشرق بريطاني وفقيه قانوني، عرف عنه أنّه كان ألمعيًا في اتقان اللغات بشكل لا يوصف، فقد أتقن اليونانية واللاتينية والفارسية والعربية والعبرية وأساسيات اللغة الصينية، فضلا عن اتقانه لثلاثة وعشرين لغة أخرى أتقانا معقولاً أسهم في التعريف بالحياة الثقافية والأدبية الهندية، كما أنّه يعدّ صاحب الفضل في ترجمة المعلقات السبع العربية وبعض كتب الفقه الإسلامي إلى اللغة الإنجليزية، ولقد أعلن بموقفه هذا لأوّل مرة أمام الجمعية الأسيوية البنغالية سنة **1786**م التي أسّسها هو بنفسه بتاريخ: (*1783/09/15*م). للتوسع يرجى العودة إلى: عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، نقلا عن (البحوث الأسيوية/*Asiatic Researches*) ج**1**/ص**422**، دار موفم للنشر الجزائر **2007**م، دط، ص**115**، بتصرف.

[2]- لقد ورد في كتاب مفاتيح في اللسانيات (النسخة الفرنسية) لجورج مونان ما هذا نصه: "*Solon le point de vue où se place, la linguistique est née vers le v^e siècle avant notre ère, ou en 1816 avec Bopp, ou en 1916 avec Saussure ou en 1926 avec Troubetzkoy, ou en 1956 avec Chomsky*" ينظر: - *George Mounin, Clefs pour la linguistique. SEGHERS , Paris, 1^er Jdition, 1986, p19*

لكلّ قصة أبطال؛ وعندما نتعامل مع أبطال اللسانيات على ممرّ التاريخ الذين كانوا أكثر تأثيرًا في توجيه العلم الحديث، فإنّنا –عادة– ما نتصورهم في أشكال شخصيات أسطورية ونصنفهم بأوصاف تلبسهم ثوب الخرافة المناسبة لعالم الخوارق، ولكنّنا –على غير ذلك– نستطيع القول: إنّ الزعماء الحقيقيين للسانيات بدءًا من بانيني (**पाणिनि**) إلى سوسير (*F.Saussure*) الذين عرفوا الطريقة الحقيقية والوقت المناسب لإحداث ثورة علمية وبالمفهوم الإبستمولوجي الواسع، والتي كان من شأنها إعادة النظر في الأدوات التحليلية العتيقة المتوارثة من أزمنة العالم القديم، وهي الفرصة الفريدة لهدم جميع القناعات التي أثقلت كاهل المحلل اللغوي واقصاء التعليلات الدوغماتية (**δγμα**/*Dogmatiqu*)التي حالت بين اللغوي والعلم المحقّق المستند على البرهان والقابل للتجريب والتقعيد وفق نظريات ومناهج محورية في علم اللغة الحديث.

أوّلا؛ مهاد تاريخي للفكر اللساني في القديم: لقد ارتبط الإنسان منذ القديم ببيئته المحيطة به، وقد صاحب هذا الارتباط بتأمل عناصر طبيعته الداخلية والمادية، حتى تشكل عنده وعي بالأشياء والقيم، وقد استمرّ هذا الوعي بعناية شديدة مشكلا ثقافات ورثها بحرص من جيل إلى جيل حتى ترسبت وانتهت في آخر المطاف إلى بناء وقيام حضارات مختلفة في أماكن متعدّدة من العالم القديم، وسمت بالتفاوت من حيث القوة والسلطان والطبيعة الفكرية ومختلف ألوان الحياة، ومع ذلك إلاّ أنّ الحضارة التي بناها الإنسان في القرن العشرين والواحد والعشرين (*XXI*) ليست فقط مدينة بأعمال رجال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (*XVIII و XIX*) وإنما تبقى مدينة لكل التأملات والثقافات والحضارات الموغلة في القدم، وهذا الاعتراف في حدّ ذاته لم ينتج عن تواضع المؤرخين من أبناء هذه الحضارة، وإنّما هو اعتراف بجميل هذه الأمم، يقول روبن هنري روبتر "..**وفي بعض الثقافات تلك التي يصدق عليها لسبب أو لآخر لقب الحضارات، فإنّ حبّ الاستطلاع وإدراك الإنسان لمحيطه قد استطاعا أن يصبحا علمًا؛ أي دراسة نظامية لموضوع معيّن، أو لمجال من مجالات الظواهر، وقد اعتنى بهذا الموضوع أو المجال، ونقلته من جيل لآخر أناس عرفوا بمهاراتهم ومعرفتهم بنشاط معين من هذا النوع، والجنس البشري كلّه مدين بدين عظيم لتلك الثقافات التي رعت تطوّر العلوم بطريقة أو بأخرى.."**[1] وبالتالي فإنّ البحث عن تاريخ الأفكار والنظم ليس هدفه البحث عن نقاط القوة و الضعف فقط، وليس كذلك لتمجيد أو ازدراء بعض الممارسات التي ابتكرتها الأجيال السابقة، وإنّما هو تباحث عن كيفية تشكل المعرفة في مجال من المجالات، ولكيفية انتقالها عبر الأشخاص والدهور، ومن

[1]- روبن هنري روبنز، **موجز تاريخ علم اللغة في الغرب**، تر: أحمد عوض، عالم المعرفة الكويت د–ط، 1990م. ص16

الأهمية بما كان لطلبة اليوم والباحثين أن يفهموا بأنّ العقل هو انتاج لاحق ففهم آلية تشكل الأفكار وانتقالها يضمن استمرارية هذه المعرفة وتوريثها للأجيال المستقبلية..

كانت الحضارات القديمة وبخاصة الشرقية سباقة إلى رفع مستوى الحياة الحضارية والاجتماعية إلى المستوى اللاحق، وفي تاريخ علوم اللغة يمكن أن نبدأ بوضوح في جمع الإشارات الأولى من الحضارة المصرية **(أو حضارة الفراعنة القدامى)** التي بسطت سلطانها على ضفاف نهر النيل العظيم،* بدءًا من الألفية الثالثة قبل الميلاد وتحديدًا من تاريخ (***3150*** ق.م)، ولعلّ عدم تنبيه **روبن هنري روبنز** إلى هذه الحضارة والحضارات المتعاقبة **كالبابلية والسومارية والأكادية والآشورية ثم الهندية والصينية وبلاد ما بين النهرين وحضارات شعوب أمريكا اللاتينية كالمايا والأزتيك وحضارة السكان الأصليين في أستراليا وبخاصة التي استوطنت وادي هانتر بسدني،** لا يعود في أساسه إلى تفوّق الحضارات الأخرى بدءًا من اليونانية إلى الأوروبية وهذا ما حاول تبريره بقوله "**..إنّ إقامة هذا التاريخ على تاريخ علم اللغة في أوروبا لا يعني مطلقا الادعاء بأفضلية أوروبا في الحقل اللغوي، فالواقع أنه في كثير من جوانب النظرة الصوتية والفنولوجيا وفي جوانب معينة من التحليل القواعدي، فإنّ المعرفة الأوربية كانت أدنى بشكل واضح من معرفة الهنود القدامى..**"[1] ومع ذلك فإنّه لا يمكن ببساطة تجاهل قصة المؤرخ الإغريقي **(هيرودوث/*Herodotos*)** التي تنص على أنّ ملكًا مصريا يسمى **(بسامتيسوش/*Psammetichus*)** وهو فرعون ينحدر من السلالة السادسة والعشرين**(*26ème* *Dynastie*)** ، قد حاول معرفة أقدم لغة عرفها البشر وبالتالي استنتاج اللغة الأولى التي انطلقت منها جميع اللغات، فقام في سبيل إثبات ذلك بعزل صبيين عن المجتمع منذ ميلادهما، وعندما نطقا استعملا كلمة **(بيكوس/*Pikos*)**، يقول أحمد مومن: "**..وعلم الملك وأتباعه إذ ذاك أنّ هذه الكلمة تنتمي إلى اللغة الفريجية** (*Phrygian*)**، ومن هنا استخلص الملك وأتباعه**

---

*)- كلمة **النيل** أصلها (**نوبي**) من الفعل (**ني**) بصيغة الأمر بمعني (**اشرب**) والماضي منها (**نيلوس**) والنفي (**نيلكومو**) والمصدر (**نيل**) مكان الشرب كما في الجملة بالنوبية (**نيلا تون نيلوس**) وتترجم إلى العربية (**شربت من مكان الشرب**) ومنها أتى الاسم **لنهر النيل** وليس كما يدعي بعضهم أنها كلمة فرعونية فاللغة النوبية لا زالت تتحدث إلى الآن بلسان النوبيين في جنوب مصر وشمال السودان وجنوب كردفان في غرب السودان لمزيد من التوسيع ينظر الموقع الآتي: https://arz.wikipedia.org/wiki.

1- روبن هنري روبنز، **موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)**. ص**21**. وبالرغم من هذا التعليل إلاّ أنّ ذلك يبقى نقصا واضحًا في تاريخه، حيث إنّه قد حاول تتبع تسلسل الأفكار والملاحظات، ولذلك فإنّ تجنب هذه الأمم والأمم الأخرى كالعرب واليهود لا يبرّره شيء غير استصعاب النصوص التي لم تترجم إلى اللغات الأوروبية التي هي في متناول المؤرخ، إلاّ أنّ تمكن جورج مونان من هذه المادة العلمية التي جمعها من ثقافات وحاضرات علمية مختلفة كان تاريخه أكثر دقة وغزارة من روبنز ولكنه بدوره قد انتبه إلى العبرية وقفز عن الدراسات اللغوية العربية التي عدّها سليلة عن الدراسات العبرية وهذا نقص في تأريخه.

على أنّ هذه اللغة هي اللغة الأولى التي عرفتها الإنسانية..."[1] ولكن الثابت عندنا اليوم بأن الكتابة الهيروغليفية (**ἱερογλύφος**) قد أجبرت المصريين القدامى على صياغة بعض القواعد في الرسم والتعليم وإتقان فنونه صوتًا ومعجمًا ودلالةً ونحوًا.

وبالتالي فإنّ دعوة أنطوان ميي (*Antoine Meillet*) التي تنص على ".. **أنّ الذين اخترعوا الكتابة وحسنوها هم في الحقيقة من أكبر اللغويين، بل هم الذين أبتدعوا اللسانيات**"[2] هي دعوة لها ما يقابلها من المسوغات؛ إذ إنّ اكتشاف الكتابة وتهذيب أنماطه والتنويع في رسمه أمر غير متاح للجميع وليس من السهولة بما كان بلوغه على أقل تقدير في هذه الأزمنة الغابرة التي تقابل كل باحث بشح منقطع النظير في الوثائق والدلائل.

لقد كانت للحياة الدينية المتنوعة والثرية في مصر القديمة الأثر الجليل في تقدم الدراسات اللغوية حيث إنّهم عبدوا " **أمون وأوزريس وأبزيس وحورس وأبيس وبتاح وحتحور ورع وتحوت..**" ومئات من الآلهة التي تزاحمت في آلاف المعابد ولها أتباع كثر، ومع كلّ ذلك احتاج الناس إلى الكتابة الصحيحة للتعويذات وترتيلها بالشكل المناسب فضلا عن صقل طرائق لتعليمها وتعميمها على مختلف الفراعنة والكهنة. وقد كانت الكتابة المصرية تظهر على الشكل الآتي:[3]

---

1)- أحمد مومن، **اللسانيات؛ النشأة والتطور**، ط3، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م. ص**01** بتصرف، غير أنّنا لا نرتاح كثيرا إلى مثل هذه القصص التي رويت تقريبا في كلّ الأمم باختلافات طفيفة شملت تغييرًا على الأشخاص واللغات، وفي الحقيقة أنّ هذا الفكرة كانت سببا في طرح إشكالية البحث عن أصل اللغات والعودة إلى اللغة الأولى، ولم يتوقف البحث في هذا المجال إلاّ مع سنة *1866* م ، وقد ورد اسم(*Psammetichus*) في كتاب أحمد مومن بهذه الصيغة الخاطئة (*Psammetichos*).

2)- *Mounin, G. (1968), Clefs pour la linguistique. P22*

3)- تم اقتباس هذا النص (**الصورة الجدارية**) من كتاب "**الموتى**" (*The book of the Dead*) وهو مجموعة من الوثائق الدينية والنصوص الجنائزية التي كانت تستخدم في مصر القديمة لتكون دليلا للميت في رحلته إلى الآخرة، استخدمت من بداية العصر الحديث للدولة المصرية القديمة في حدود سنة *1550* ق م، إلى حوالي *50* سنة قبل الميلاد، وحاليا يعدّ هذا الكتاب من أقدم النصوص التي وصلت إلينا منهم والتي يعود تاريخها حسب زاهي حواس إلى زمن بناء الهرم الأكبر (خوفو Χέοψ) ولم يبق منه إلاّ نسخة واحدة في متحف لندن للمصريات، لمزيد من التوسع يمكن الاستعانة بـــ: كتاب الموتى: *https://ar.wikipedia.org/wiki*

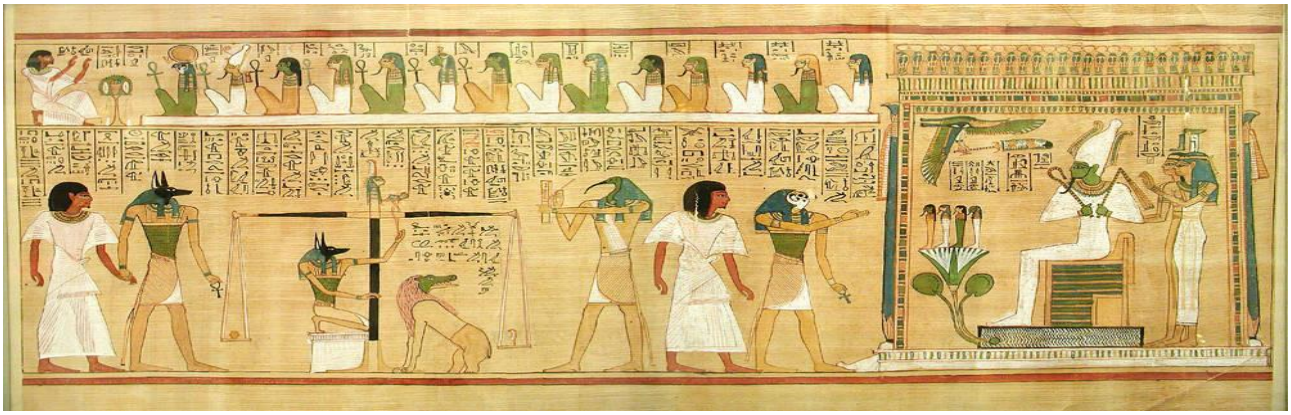

شرح الصورة؛ محكمة الموتى: في الصف العلوي يمثل الميت أمام محكمة مكونة من42 قاضيا للاعتراف بما كان يفعله في حياته، في مقدمتهم **(رع-حوراختي)**، ونري إلى اليمين أسفل منهم **(أوزيريس)** جالسا على العرش وخلفه تقف أختاه **(إيزيس ونيفتيس)** وأمامه الأبناء الأربعة لـــ**(حورس)** واقفون على زهرة البردي وقد قاموا بالمحافظة على جثة الميت في القبر. يأتي **حورس** بالميت لابسًا ثوبًا جميلاً ليمثل أمام **(أوزيريس)** ويدخل بعد ذلك الجنة. إلى اليسار نرى **(أنوبيس)** يصاحب الميت لإجراء عملية وزن قلبه. في الوسط منظر عملية وزن قلب الميت: **أنوبيس** يزن قلب الميت ويقارنه بريشة الحق **(ماعت)**، بينما يقف الوحش الخرافي **(عمعموت)** منتظرا التهام القلب إذا كان الميت خطاءً عصيًا، ويقوم **(تحوت؛ إله الكتابة)** بتسجيل نتيجة الميزان بالقلم في سجله، وأكثر ما يهمنا في هذه الصورة فضلا عن الزخم الديني والدلالة العقائدية التي تهذب طرائق العبادات المتبعة عندهم هي الكتابة التي قيّدت هذه المواقف والطرائق الماثلة في الجزئين العلوي والوسطي، حتى وإن كانت أغلب الرموز اليوم مازالت غامضة وغير مفهومة من حيث من كيفية نطقها ومعانيها وبالرغم من تزاحم النظريات في تفسير هذه القضية إلاّ أنّ أهم الفرضيات المعقولة علميا هي فرضيتا العبقريين الليسانيين "توماس يونغ وجون فرانسوا شامبليون".[1] ويبدو أنّ الأخطاء التقديرية المسجلة على طرحهما أفسدت البرهان العلمي المقنع لهما، وبالتالي فإنّ هذا اللغز لم يحل بشكل نهائي ومازال البحث فيه قائما.

يرى جورج مونان أنّ المؤرخين لم يستطيعوا تجاوز عقبة قلّة المصادر التي تصف بدقّة الدرس اللغوي في مصر القديمة، ولكنّها مسألة وقت فقط وفي مثل هذه القضايا يتوجب على العلماء صياغة أحكام نهائية لأنّ جميع الآراء التي قد ننتهي إليها إنّما هي ظرفية ورهينة المكتشفات الجديدة مع العلم أن علم الحفريات والمصريات قد أصبح

[1]- ينظر: ملف بردي "**حونيفر**" من الأسرة التاسعة عشر، بالمتحف البريطاني، المرجع السابق نقلا حرفيا.

علمًا واعدًا، يقول: **"..وأوّل ما ينبغي أن نؤكده فيما يتعلق بالبحوث التي أمكن لمصر القديمة أن تقوم بها حول ظواهر اللغة، هو ضآلة معلوماتنا الراهنة بهذا الصدد، ونحن لا نرى في هذه الضآلة – على الأقل في أيامنا- أمرًا ثابتا، بل نحن نعتبرها حالة راهنة انتقالية قابلة للتغيير، وفي الواقع فإنّ علم الآثار الفرعونية قد ضمّ مشاهير فقهاء اللغة ممن تشهد لهم آثارهم العلمية منذ قرن ونصف، فقد استطاعوا أن يحرّروا في مؤلفاتهم الجامعة فصولا غزيرة في الحقوق والإدارة والفلك والطبّ والاقتصاد والجغرافيا والرياضيات.."**[1]، وبالتالي فإنّنا نتوقع مستقبلا وفي ضوء الاكتشافات الحديثة أنّ حقائقا كثيرة سيتم كشفها من ضمنها مكتشفات لها علاقة مباشرة بموضوع اللغة والدراسات اللغوية في هذه الحضارة القديمة التي تعد بمستقبل زاهر، ومن المؤكد أنّنا سنتعلم منهم الشيء الكثير.

وقد تزامن في هذه الفترة السحيقة حضارة أخرى إلى جانب الحضارة المصرية القديمة وهي الحضارة **السومرية** في جنوب غرب آسيا، وهم شعب استوطن هذه المنطقة من أصل مجهول وتركوا تراثا اشتهر في كلّ أرجاء العالم قديما وحديثا، وقدا كانوا المبدعين الفعليين للخط المسماري وفق ما يسمى بالكتابة التصويرية (*Idiograghs*) وقد استعملت لغتهم في الحقبة ما بين (*4000* **إلى** *2000* **ق ب**)، ويتعقد المؤرخون اليوم بأنّ لغتهم من اللغات الأولى التي تمّ تدوينها، ويعلّق عبد الوحد وفي على هذا الموضوع قائلا: **"..وكان يسكن هذه المنطقة قبل أن يهاجر إليها الساميون شعب يسمى الشعب السومري وهو شعب مجهول الأصل ولكن المقطوع به أنّه غير سامي ولا آري، وقد كان له بهذه البلاد حضارة زاهرة ولغة راقية ذات آداب وأسلوب خاص في الرسم اشتهر عند العرب بالخط المسماري وعند الفرنجة باسم رسم ذي الزوايا وعند العبرانيين باسم رسم الأوتاد..."**[2] وفي القلب النابض لهذه الحضارة قامت داخلها حضارة أخرى في القرون (*24/22* ق .م) تسمى بالحضارة الأكادية.

---

[1]- ينظر: جورج مونان، **تاريخ علم اللغة منذ نشأته حتى القرن العشرين**، تر: بدر الدين القاسم، دط سلسلة الكتب العلمية، دمشق-سورية، 1982م. ص32، غير أنّ أحمد مومن قد اقتبس هذه الفقرة واستعملها في غير هذا السياق وبترها بشكل صارخ ليثبت بأنّ الدراسة اللغوية عند المصريين القدامى كانت منعدمة تماما، وهذه الفكرة ينبغي مراجعتها وإعادة النظر فيها.

[2]- عبد الواحد وافي فقه اللغة. ص22

وكانت تسمى **(بالسومرية: أكد، وبالحيثية "كور أكد ديكي" أي أكد، وحسب التسجيل التاريخي التوراتي: أكد)**[1] ويذكر أحمد مومن أنّهم شعب سامي هاجر أوّل مرّة إلى العراق وسكنوا في حدود الضفة الغربية لنهر الفرات.

(أو بلاد الرافدين: بالآرامية: صعا دمغم بين نهرين، وتعني؛ بلد النهرين"، بالإغريقية Μεσοποταμία) بين (**زمبير وكيش التي تبعد بحوالي 50 كلم جنوب غرب مركز بغداد)** في القرون **3600** ق.م.

حيث نقل نصًا عن محمد علي الخولي مفاده أنّ **"..اللغة الأكادية لغة سامية شرقية بائدة استعملت في العراق بين القرن الثامن والعشرين والقرن الأوّل قبل الميلاد، وهي من العائلة السامية الحامية.."**[2]

وتعد اللغة السومرية والأكادية من أقدم اللغات المكتوبة التي سجلها التاريخ القديم إلى حدّ الآن. تعدّ اللغة السومرية لغة غنية بالكلمات والأصوات والحروف التي تقابلها في الرسم، وبها كتبت كلّ أخبارهم وقصصهم وأساطيرهم وبخاصة ملحمة جلجامش الشهيرة، والتي تم اكتشاف نصها كاملا سنة **1853 م**، على ألواح طينية وهناك من يذهب إلى أبعد من هذا حيث يفترض بعض المؤرخين بأنّها اللغة التي اشتهرت نطقا وكتابة في عالم ما قبل الطوفان.

وعليه يعتقد بأنّ أقدم نص بالسومرية وصل إلينا هو نص محفور على قطعة خشبية أثبتت الدراسات أنّه ممكن بشكل كبير أن يكون من الأجزاء القليلة التي بقيت من سفينة نوح –عليه السلام– أو من العالم ما قبل الطوفان، وهي على النحو الآتي:[3]

---

[1]– ينظر: الإمبراطورية الأكادية https://ar.wikipedia.org/wiki

[2]– ينظر: أحمد مومن، **اللسانيات؛ النشأة والتطور**. ص**04** نقلا عن: *Muhammad Ali Al-Khuli : A Dictionary of Theoretical linguistics, Librairie du liban, 1982.*

[3]– **جريدة الهدى القاهرية، بتاريخ**: 31 آذار (**مارس**) 1954**م** وقد قام مجموعة من فقهاء اللغة وخبراء اللغة السومرية الروس وهم (**سولي نوف، إيفاهان خينو، ميثانون لوفر تيك، تانمول كورت، إيم أحمد كولاد، ميجر كولتوف**) بترجمتها أول مرة إلى **اللغة الروسية** ثم منها إلى باقي اللغات ونحن نأخذ بالترجمة الإنجليزية لـــ (**أين إيف ماكس**)، كما ينبغي إلى الإشارة بأنّنا قد قمنا بتوسيع الاستشارة على المعنى الذي احتواه هذا اللوح على كثير من الباحثين في الاختصاصات المختلفة إلى أنّ القاسم المشترك بينهم جميعا أنّهم قد نبّهوا على المرجعية الشيعية في الترجمة دون نفي إمكانية اختلاق هذه القصة من طرفهم لإثبات شرعيتهم الدينية، وقد سبق وأن حدث مثل هذا التزوير التاريخي تكرارًا في ديانات مختلف على نحو ما نجده في قصة كفن تورينو.

النص الأصلي باللغة السومرية	ترجمته إلى الإنجليزية	ترجمته إلى العربية
	Omy God. My helper *Keep my hands with merey* *nd with your holy bodies* *Mohamed* *Alia Shabba Shabbir fatma* *They are all biggest and honourales* *The world established for them* *Help me by their names*	يا إلهي ويا معيني برحمتك وكرمك ساعدني ولأجل هذه النفوس المقدسة محمد (ص) واليا (علي) وشبّر (الحسن) وشبير (الحسين) وفاطمة الذين جميعهم عظماء ومكرمون العالم قائم لأجلهم ساعدني لأجل أسمائهم .....

وبغض النظر عن المحتوى الديني فإنّ هذه اللوحة قد احتوت على مجموعة من النقوش على لوح خشبي لا يتعدى حجمها راحة اليد، ويمكن أن نتصوّر (**يعني نفترض**) بأنّها كانت محمولة في الجيوب أو معلقة حول العنق لتذكير المؤمن أو لإبعاد الأرواح الشريرة (لا نعلم بالتحديد حدود استعمالها)، إذا هذه النقوش هي كتابة على لوح خشبي كما أسلفنا، وقد تطوّر ذلك عبر الوقت ليتمّ استعمال الطين والحجر ثم الشمع والمعادن وحاليا يوجد أكثر من ***130.000*** لوح طيني متفاوت الوضوح والاكتمال بالمتحف البريطاني لندن والتي تعدّ قبلة للاختصاصيين في اللغات القديمة والخطوط العريقة.

ويمكن في هذا السياق الإشارة إلى أنّ اختلاط السومريين بالأكاديين والحورتيين والآشوريين واليوغارتيين ..الخ، قد فرض حاجةً حضارية ملحّة مستجدة تتمثّل في تفسير وتعليم الكتابة السومرية وكان أهم شيء لاحظوه هو وجود نوعين مختلفين من الأنظمة اللغوية وهي نظام (**إيم سال/Eme-Sal**) ونظام (**إيم كو/Eme-ku**) يقول أحمد مومن "**..لقد ظهرت في هذه الحضارة معاجم أحادية اللغة، ومعاجم ثنائية اللغة سومرية وأكادية وقد عثر العلماء في يوغريت بمكتبة (ربانو/ رفآنو بالنطق اليوغارتي) على معاجم رباعية اللغة (سومرية/أكادية/ حوريتية/يوغارتية)..**"[1] ما يعني أنّهم كانوا المؤسسين الأوائل لأساسات فن الترجمة والمعجمية، وبالتالي فإنّ هذه الحضارة قد أسهمت بشكل مباشر في بعج هذا العلم

[1]- أحمد مومن، **اللسانيات؛ النشأة والتطور**. ص05 بتصرف

المتمثل في المعجمية (*la lexicologie et la lexicographie*)، كما تجدر الإشارة إلى أنّ الخط المسماري قد عرف قفزة نوعية في العهد الأكادي حيث تقدم من خطوة رسم الحروف إلى تقييدها بالحركات الدالة على الفاعلية والمفعولية والظرفية وغيرها من الأدوار الإعرابية فضلا عن استعمال الأرقام والحساب، وهذا أمر يعدّ في زمانهم خطوة عملاقة في الإبداع اللغوي وبالنسبة إلينا بمثابة اكتشاف حقيقي للسانيات. وهذا تبيان للرسم السوماري:

الأبجدية الأوغاريتية	الحروف اللاتينية	الحروف العربية	الأبجدية الأوغاريتية	الحروف اللاتينية	الحروف العربية	الأبجدية الأوغاريتية	الحروف اللاتينية	الحروف العربية
	A	ا		Y	ي		P	ف
	B	ب		K	ك		Ṣ	ص
	G	ج		Š	ش		Q	ق
	Ḫ	ح		L	ل		R	ر
	D	د		M	م		Ṯ	ث
	H	هـ		Ḏ	ذ		Ġ	غ
	W	و		N	ن		T	ت
	Z	ز		Ẓ	ظ		I	إ
	Ḥ	ح		S	س		OU	ؤ
	Ṭ	ط		ʿ	ع		(S)	(س)

أمّا من ناحية النطق فلنأخذ هذه المادة القانونية لحمورابي من البابلية، والتي نصها:[1]

"شُمَّ أَوِيلُم نَمْكُور إِلم وإِيكَلِم يِشْرِقْ، أَوِيلُم شُ يِدَّقْ، و شَ شُرْقَم إِنَ قَاتِشُ يِمْخُرُ يِدَّقْ" **التعرب:** "إذا **سرق رجلٌ رزقاً لإله أو من هيكلٍ، يُقتل ذلك الرجل، ويُقتل كلُّ مَن استلم من يده شيئاً مسروقاً" النص بالرسم المسماري الأكادي البابلي:**

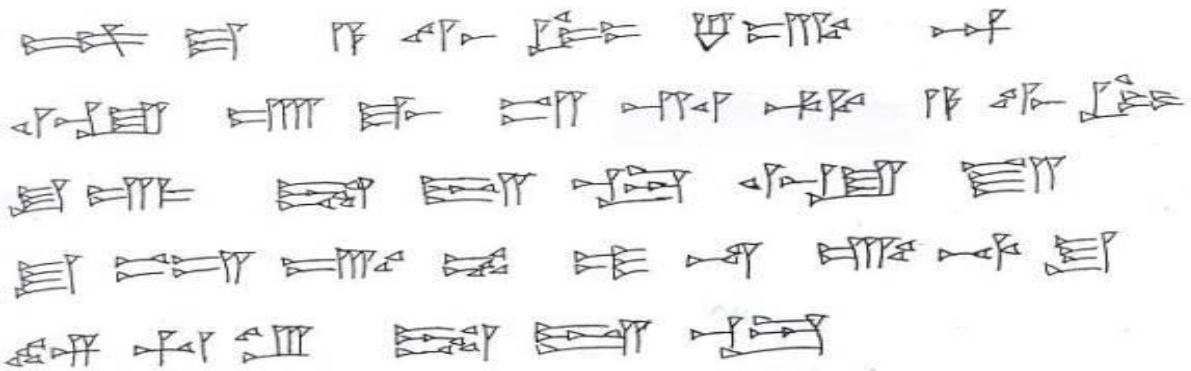

[1]- مأخوذ عن الموقع الآتي: *http://www.startimes.com/f.aspx?t=3555696*

وبالعودة إلى مقولة السير وليام جميس يمكن أن نقول: إنّ كلّ هذه الاسهامات التي قدمتها الحضارات الغابرة كان تمهيدات لما هو أعظم وأعمق ولسنا ندري بالضبط مدى تأثر هذه الحضارات بعضها ببعض ولكن المؤكد هو أن الدرس اللغوي الهندي القديم سينهي أجيالا ممتدة من البحث اللغوي التقليدي والسطحي والأولي ليحل محله ولأوّل مرة في تاريخ العلم المعرفة اللغوية المكتسبة عن طريق الوصف والتحليل، يقول الحاج صالح **"..بنى الهنود دراساتهم اللغوية على المشاهدة والاستقراء ولم ينطلقوا كما سيفعله الفلاسفة اليونان من محض التأمل فما خرجوا إلى تلك المعارف من نظرية سابقة بل تصفحوا جزئيات لغتهم ومجاري كلامهم من مشافهة بعضهم لبعض (بهاسا)، وبالنظر في النصوص القديمة (شنداس) فكانت مناهجهم بذلك علمية حقيقية مستوفية لجميع شروط العلم كما نفهمه اليوم..."**[1] ويمكن اليوم التحقق من هذه القضية بسهولة بمجرد تصفح كتاب (**الأست أدهيايي**)؛ هذا الأخير الذي اتخذ اللغة السنسكريتية على أنّها بنية متكاملة متعاضدة تتألف من مستويات (**صوتية وصرفية ونحوية ودلالية**)، ويكمن الهدف من وراء ذلك في الحفاظ على اللغة التي ألّفت بها النصوص البراهمية المقدسة **"..وقد تولد هذا الاهتمام المنقطع النظير في الحضارات القديمة عن شعور ديني أساسه الحفاظ على النصوص الدينية الشفهية التي تمثّل الفيدا؛ ذلك الكتاب الديني الذي ظهر حوالي 1200-1000 ق م، والذي يمثل عقيدة وشريعة البراهمية، ولعلّ هذا الحرص تولد عن شعور بتلك الفوارق اللهجية الموجودة في بلاد الهند القديمة والتي تظهر في عادات كلامية متباينة من شأنها التأثير في سلامة نطق النصوص المقدسة أو سوء فهمها، غير أنّ المثير للغرابة هو تحوّل الرغبة الدينية إلى درس منهجي يتخذ من اللغة السنسكريتية موضوعا للدرس ويجعلها بؤرة في الاهتمام الهندي القديم..."**[2] فإذا كان في البداية الوازع الديني هو السبب في قيام عقل لغوي هندي ولكن فيما بعد تحول الدرس اللغوي إلى غاية في فهم اللغة السنسكريتية.

أوّلا؛ **نظرة موجزة عن الفيدا**: (**الفيدا**/*vidas*) معناها بالعربية **الآلهة**) وهو كتاب مقدس في الديانة (الهندوسية/ البراهمية/ وفي السنسكريتية **हिंदू धर्म**) يحتوي على (***800*** مجلّدًا) تم تناقله عبر الأجيال شفويًا في البداية طيلة (***3*** آلاف سنة) وهي جملة من النصوص والتراتيل والترانيم والتعويذات التي عمل بها الآريون الهنود (***Indo-Aryens***) لتكريم آلهتهم، وله أربعة أقسام نبينه على النحو الآتي:[3]

---

[1]- عبد الرحمن حاج صالح، **بحوث ودراسات في علوم اللسان**، د-ط، منشورات المجمع الجزائري الجزائر 2016م.. ص62. ص62

[2]- ينظر: الدرس اللغوي عند الهنود عن موقع؛ ***https://ar.wikipedia.org/wiki*** بتصرف

[3]- ينظر: النصوص الهندية عن موقع؛ ***https://ar.wikipedia.org/wiki*** نقل حرفي.

1. **الريجفدا**، وتحوي تراتيل شعرية **(مانترا मन्त्र)** موجهة إلى الآلهة بالإضافة إلى الكثير من الأساطير وممارسة الطقوس القديمة الأكثر فيدية.
2. **الساما فيدا**، والتي تحوي تقريباً فقط على مانترا من الريجفيدا والمُرتبة بتسلسل ليتم استخدامها للغناء عند تقديم القرابين للآلهة.
3. **اليا جورفيدا**، تحتوي على مانترا نثرية ومقاطع مأخوذة من الريجفيدا والتي تُستعمل في الطقوس الدينية بالإضافة إلي قسم نثري مُفصل عن أداء القرابين.
4. **الآتارفافيدا**، تضم التعويذات ضد الأعداء، السحرة والأمراض وأيضاً طرق التكفير من الأخطاء التي اُرتكبت خلال طقوس تقديم القرابين، وكذلك تعاليم التعامل مع الشعائر الأُسرية وحقوق الملكيات.

في العادة، تُقسم كل فيدا من الأربع فيدات إلى أقسام عديدة، أهمها:

1. **قسم المانترا**: تُدعى أيضاً **سامهيتا ((संहिता)**، والتي هي عبارة عن مجموعة من التراتيل الشعرية والتغني النثري لاستخدامها في التضحيات والقرابين الفيدية.
2. **قسم براهمانا (ब्राह्मण)** وينبغي عدم خلطها مع روح براهمان أو الطائفة البرهمنية؛ ويحتوي على شرح بعض المانترا وكذلك التعليقات النثرية لشرح وتفاسير معاني التراتيل والطقوس الدينية.

تعُتبر **البراهمانا** الكُتيبات الطقوسية فيما يتعلق **بالسامهيتا**. ويمكن تقسيم **البراهمانا** إلى:

الأوبانيشاد (आरण्यक)

والأرنياكا (उपनिषद्) ، والتي تحتوي بشكل رئيس على نصوص فلسفية وميتافيزيقية حول علم الكون الهندوسي (**الآلهة والكون**). كما أنّها تتحدث عن علاقة الروح الإنسانية (**آتمان**) وروح البراهمان. ويُشار إلى الأوبانيشاد مُجتمعة **بالفيدانتا** (**" نهاية الفيدا**")، ليس فقط لأنها تظهر فعلياً في الأقسام الختامية لكل فيدا، ولكن أيضا بسبب النظرة إلى تعاليمها باعتبارها تتويجاً لجميع المعارف الفيدية الأُخرى.[1]

[1]- المهابهارتا **महाभारत** واحدة من الملحمتين الكبريين المكتوبتين باللغة السنسكريتية في الهند القديمة يقال بأن (فياسا/**व्यास**) هو من ألّفها، والأخرى هي (رامايانا/**रामायण** التي ألّفها **فالميكي/वाल्मीकि**) والتي تشكلان معا التاريخ الملحمي للفكر والاعتقاد الهندوسيين، تم في البداية تناقلها شفويا ثم بدأ تقيدهما كتابة في القرون الأخيرة قبل الميلاد.

صورة نصية من ملحمة الماهابهارتا؛ تبين أسلحة الشيطان ومن الجهتين القصة بالسنسكريتية في معركة كوروكشترا

ثانيًا؛ الدرس اللغوي الهندي: لقد كان الدرس اللغوي النحوي الهندي متقدّمًا جدًّا نظرًا للمسوغات السالفة حتى عن اللسانيات في الفترة المعاصرة في بعض النواحي، وأهمّ ما يلاحظه الباحث هو دقة الوصف وعمق التحليل وغزارة الاحتجاج وكثرة تقليب المسائل على أوجهها المختلفة وترتيب آراء العلماء والنحاة؛ كل ذا والعديد غيره مما طبع وطال اغلب النصوص اللغوية الهندية حول اللغة السنسكريتية ويرجح الحاج صالح بأنّ بانيني لم يكن وحيدًا في هذا المجال ومهما كانت آراؤه متقدمة في نواح كثيرة كما أنّه ليس المهندس الأوّل للنظرية اللغوية يقول: **"..ولا نعرف بالضبط من هو الواضع أو الواضعون الأوّلون غير أنّه قد وصل إلى عهدنا كتاب جليل جدًا من أحد نحاتهم وهو كتاب (أست أدهياي)؛ ومعناه الكتب الثمانية** ألّفه اللغوي النحوي المشهور بانيني، ويظهر من كلامه أنّ أكثر ما يقوله كان قد سبقه إليه عدد كبير من النحاة الهنود فهذا يدلّ على أنّ نحوهم أقدم من هذا العهد.."[1] ومهما كان إبداعات اللغويين الهنديين عجيبة فإنّ أصالة بحوثهم في الجوانب الصوتية أعجب وأدق وأكثر تقنية حتى من الحضارات التالية يقول مونان **"..وكان الهنود يعنون عناية قصوى استبقاء اللفظ الصحيح للعبارات الدينية ممّا أدّى بهم إلى**

1- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق. ص62، بتصرف، ويقدم هذا العالم الجليل –الحاج صالح رحمه الله– في الهوامش من رقم (16 إلى 21) من الكتاب نفسه إحصاءات هامة جدًّا، فقد نقل عن بورنال (Burnell) أنّ عدد الذين ذكرهم بانيني أكثر من (68 نحويًا واحدا تلو الآخر حتى يصل إلى سلفه المباشر والمسمى Yasha)، بنظر: On the Aindria System of Sanskrit Grammarians 1879 p32، وقد طبع كتاب بانيني في لايبزيش في 1887م، نشره ونقله إلى الإنجليزية Bohtlingk ونشر بعد بلغات عديدة، وقد اطّلع الأوروبيون على هذا الكتاب قبل هذا التاريخ بسنين طوال، أمّا في النحو العربي فقد أحصى السيوطي (ت911هـ) أكثر من 2209 لغويا ممن ألّف في اللغة والنحو من أوّل ظهور إلى القرن التاسع الهجري، أمّا اللسانيات فقد سجل مؤتمر العلوم اللسانية الذي انعقد في بوكورشت في سنة 1967م، أسماء الباحثين ما يقارب الألفين لساني، وينظر أيضا جورج مونان، تاريخ علم اللغة؛ منذ نشأته إلى القرن العشرين. ص64/63.

تدوين أوّل وصف لأصوات اللغة، من ناحية نطقها وعلى قدر كبير من الاتقان .. فعند الهندوسي يمتاز الكلام بعنصر أساس هو النفس الصوتي الذي يتحوّل بتماسه بالقناة الصوتية تماسًا يؤثر فيه، ولكنه يبقى لعنصر الحسي الأدنى للنطق، وآخر ما يصل إليه التحليل، هي عناصر لا يمكن تجزئتها، وهي –منطقيا- أجزاء دنيا من الكلام قابلة للفظ والسماع.."[1] أمّا في الجانب النحوي فقد أدرك **بانيني** والذين قبله بوضوح مفهوم المعاني التي تتجاوز اللغة من خلال المشكلة التي تعارض بين استعمال الكلمة والاستشهاد بها يقول بانيني "..إنّ الكلمة في قاعدة نحوية إن لم تكن تعبيرًا تقنيا تكشف القناع عن صورتها الخاصة، ويشرح **باتنجالي** هذه القاعدة بقوله: "**إذا قلنا اعد البقرة أو أشعل النار؛ فهناك أمر ينبغي إعادته أو إشعاله؛ ولكنّنا إذا قلنا بأنّ لفظة** (*Agni*/ النار) لها أداة متممة (*Eya*) **فمن الواضح أنّنا لا نضيف الأداة المتممة لقطع الجمر.. وسوف يقول برتراري في عهد لاحق إنّ الاسم في هذه الحالة ينطبق أيضا على المسمى**"[2] ومن خلال هذا العرض الموجز للدرس اللغوي الهندي نؤكد بأنّه لا يجوز أن يقفز عن أهميته التاريخية ليتحول مسار الخطاب العلمي إلى أحكام تحبر الأعمال الجليلة لهذه الحضارة على أخذ مكانة أكثر مما تستحق او الادعاء والزعم بأن مجمل الدرس اللساني الغربي إنما قد بني على تمثل هذه الأفكار والملاحظات في إطار مناهج أو اتجاهات علمية مستقلة.

صورة لبانيني في طابع بريدي هندي لسنة 2004م

ثانيا؛ الدرس اللغوي في الحضارة اليونانية (**ελληνική γλώσσα**): كان اليونانيون أهل حضارة وسياسة وحكم عضود، وقد جعلهم الاستقرار السياسي والاقتصادي والرفاهية الاجتماعية من أهم حضارات العالم القديم، ولا يمكن بحال اليوم الحديث عن الأغارقة إلاّ وربطناها بالفلسفة أو أنّنا نتحدث عن الفلسفة إلاّ وربطناها **بسقراط وأفلاطون** و**أريسطو**، هؤلاء والعديد غيرهم قد رفعوا مستويات العقل الإنساني المتأمل إلى

1- جورج مونان، تاريخ علم اللغة؛ منذ نشأته إلى القرن العشرين. ص**65** بتصرف.

2- جورج مونان، المرجع السابق. ص**69-70** بتصرف

المرحلة اللاحقة، ومن الناحية اللغوية فقد كان الدرس اللغوي عند اليونان من الاهتمامات الأساسية في العقل الفلسفي التأملي والتحليلي، وبخاصة مع الزعماء الثلاثة ثم تلاهم الرواقيون الذين اشتهروا بالقياس في القواعد النحوية لتقوم بعدهم المدرسة الاسكندرية وجميعهم همّ بطرح القضايا الآتية:

يقول جورج مونان: **"..مع دخول اليونان في تاريخ علم اللغة، يمكننا التأكيد على أنّ الحالة قد تغيّرت، اوّلا بالنسبة للباحثين إذ نجد بين أيدينا فجأة عددًا أكبر من الوثائق وهي أبلغ دلالة من غيرها، وأكثر تنوعًا وأعظم فائدة فأصبح من الممكن مباشرة الكتابة في تاريخ الفكر الإغريقي في موضوع اللغة استنادًا إلى نصوص تفرّغت لدراسة اللغة نفسها، دون أن تكون ثمة حاجة إلى المقارنات وإلى المزيد من الظن والتخمين.."**[1] ويقول في سياق آخر: **"..وإذا أقررنا بوجود أبجدية (حقيقية) حين تسجّل الكتابة الحروف الصحيحة إلى جانب حروف المدّ، فلابدّ من أن ننسب إلى الإغريق المرحلة الأخيرة لهذا الاختراع الطويل الأجل الذي أدّى إلى الأبجدية إذ أنّنا نرى في بلاد اليونان وللمرة الأولى كتابة متحقّقة تحقّقًا تامًا.."**[2] وعلى سبيل الايجاز فإنّ أهم القضايا التي تناولوها هي:

- نشأة اللغة؛ حيث طرح أفلاطون نظرية ترى بأنها من وحي وإلهام وتوقيف إلهي، غير أنّ أرسطو يذهب معارضا إلى القول بالاصطلاح والاتقان والمواضعة بين البشر.
- تحديد وحصر الأصوات اللغوية ودراستها دراسة تأملية تحليلية وأكملوا نقائص الأبجدية السامية التي كانوا يستعملونها.
- لاحظ الأغارقة أنّ الأصوات مختلفة في جوهرها فقسموها إلى أصوات صامتة وأخرى صائتة، كما انهم لاحظوا الفروقات الدقيقة بين أنصاف الحركات أو أنصاف الصوائت، كما أنّهم انتبهوا إلى دراسة المقاطع والصوتية والنبر والظواهر الأدائية.
- وفي الجانب النحوي قاموا بتصنيف الكلمة إلى ثمانية أصناف (**الاسم والفعل واسم الفاعل واسم المفعول والضمير وأداة التعريف والحرف وأدوات الربط والظروف**).
- كما أنهم جعلوا الاسم مفردًا ومثنا وجمعا. ومن حيث الجنس إلى مذكر ومؤنث والمحايد كما جعلوا الفعل مبنيا على الزمن (ماضي ومضارع وأمر).

[1])- جورج مونان، المرجع السابق. ص83 بتصرف

[2])- المرجع السابق، ص ن

الحروف اليونانية الصغيرة والكبيرة وأساميها							
A ألفا	$B\beta$ بيتا	γ غاما	Δ دلتا	E إبسيلون	$Z\zeta$ زيتا	$H\eta$ إيتا	θ ثيتا
$I\iota$ إيوتا	$K\kappa$ كبا	$\Lambda\lambda$ لامدا	$M\mu$ مو	$N\nu$ نو	$\Xi\xi$ كسي (زاي)	$O\,o$ أوميكرون	Π پاي
$P\rho$ رو	ς سغما	T تاو	$Y\upsilon$ أبسيلون	فاي	$X\chi$ خاي	$\Psi\psi$ بسي	ω أوميغا

ثالثا؛ الدرس اللغوي عند العرب: لقد أصبح معتادًا ربطُ نشأة الدرس اللغوي عند العرب المسلمين، وفي قيام العلوم العربية الموسوعية بغرض الحفاظ على اللغة العربية الفصيحة، وخشيةً على القرآن الكريم من اللحن والفساد،* يقول تمام حسّان معلّلاً السبب الموضوعي الذي وضع من أجله علم النحو: **"..إنّ الغاية التي نشأ النحو من أجلها هي ضبط اللغة العربية وإيجاد الأداة التي تعصم اللّحانين من الخطأ.."**[1]، ومن أجل هذه الغاية أجمعت كلّ العقول العربية العبقرية على دراسة اللهجات العربية المتناثرة في شبه الجزيرة عند أهل الوبر وأصحاب الحكمة واللسان المصقاع في الحضر لاستنباط القواعد الخاضعة للنظام اللغوي الموحّد، إلى جانب – ذلك– نظر حذّاق اللغة في جوانب أصولية معيارية متعدّدة عند تصنيف المدوّنة اللغوية، من ترتيب الأصول وتفريع

*هذا ما وصل إلى إلينا (**نقلاً**)؛ إلاّ أن الحجج التاريخية قابلة –دائما– للنقاش في غياب الدليل المادي، ولهذا يمكن إعادة النظر في بعض جوانب هذه المسألة، لأنه –مثلما– قال عبده الراجحي: **"..إنّ الشيء الوحيد الثابت هو وضع أبي أسود الدوؤلي (من كناية، ت69هـ) لضبط القرآن الكريم.."**، وإذا كان على أحد منّا تبنّي هذا الموقف فإنّه عليه –أوّلاً– أن يبحث في الوسائل والأدوات التي أبدع بها العرب القدامى، وذلك لعظمة الفرق بين علم يسعى لفهم النص، وعلم يسعى إلى حفظه **"..ذلك لأن المسلمين عرفوا بداية أنّه عليهم قراءة القرآن الكريم وفهمه [..]، وفرق كبير بين علم يسعى لفهم النص وعلم يسعى لحفظه من اللحن، ولو كانت الغاية منه حفظه (النص) لما أنتج العرب هذه الثروة الضخمة في مجال الدرس النحوي.."** وبهذا نخلص مع الراجحي إلى أن الغاية من وراء نشأة النظرية اللغوية العربية، وبالخصوص النحوية هي فهم القرآن الكريم ينظر: عبده الراجحي، **دروس في المذاهب النحوية**، ط1، بيروت: *1988*م، دار النهضة، ص*09*. وللمؤلّف نفسه، **النحو العربي والدرس الحديثة؛ بحث في المنهج**. ط*1*، بيروت: *1988*م دار النهضة، ص*11*. كذلك: مسعود بودوخة "**قرائن المعنى عند النحاة**" أعمال ندوة تيسير النحو، الجزائر: *2000*م ص*53*. إلاّ أنّنا نرد على الراجحي معتقدين أن الثابت –أيضا– هو نشأة النحو العربي على يد الدوؤلي والحجّة نأخذها عن ابن النديم صاحب الفهرست، في باب عنوانه [**سبب يدل على أن أوّل من وضع في النحو كلامًا أبو أسود الدوؤلي**]؛ إذ يقول**:"..ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته: وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها (هذه فيها كلام عن الفاعل والمفعول من أبي الأسود –رحمه الله- بخطّ يحي بن يعمر)..**"، وقد رأى ابن النديم هذا في المدينة الحديثة [غالب الظن أنه يقصد بها الموصل –تعليق المحقّق–] عند رجل يسمى: محمد بن الحسين المعروف بابن البعرة، أمام هذا الدليل فإنّه في قول الراجحي ما يحتاج إلى إعادة النظر. ينظر: محمد بن إسحاق النديم **الفهرست**. تح: مصطفى الشويمي، ط1، تونس: *1985*م، الدار التونسية للنشر. ص*192-193-194*.

[1]- تمام حسّان، **اللغة العربية؛ معناها ومبناها**. ط1، القاهرة: *1988*م، عالم الكتب، ص*13*، وللمؤلّف نفسه: **الأصول**. ط1 القاهرة: *2000*م، عالم الكتب، ص*23*، كذلك: عبد الرحمن بن خلدون، **المقدّمة**. تح: درويش الجويدي، ط1 لبنان: *2000*م المطبعة العصرية، ص*546*.

العلوم، وصقل العبارات العلمية الدقيقة، وقد كان علماء العرب يجمعون بين علوم متعدّدة في باب واحد، مثلما هو الحال لعلميّ النحو والصرف؛ اللذين كانا يلقبان بعلم العربية.

وإذا بنينا افتراضًا على مسلّمة تاريخية مفادها: ربط نشأة علوم اللسان بالفساد الذي ظهر عند العوام، فإنّه سيعزّز هذا الموقف –إذا أثبتنا تاريخيًا– أن اللحن أوّل ما ظهر كان في إعراب الكلام ونظام التراكيب، فإنّ هذا –الأخير– سيبرّر الحاجة الملحّة **"..إلى وضع قوانين في نظام التراكيب قبل احتياجهم إلى ضبط مفردات الكلام.."**[1] ، كما أنّه وبناءً على هذا الطرح سنلتمس تبريرًا علميًا لصاحب "**الكتاب**" الذي بدأ موسوعته بباب النحو، ومن زاوية أخرى قد يصلح هذا التوجّه دليلا على حرص علماء القرنين الأوّل والثاني بالنظام التركيبي التحليلي، وجعله في صدارة البحوث اللغوية دون منازع.

أيًّا كان الأمرُ؛ فإنّ النحو العربي يعتبر اليوم أكبر إبداع في تاريخ الفكر البشري، الذي قامت على هديه كلّ العلوم اللغوية المقترنة بالنص القرآني الكريم؛ من حيث إنّه خير الكلم، فأعدّت العقول عدّتها لاستثماره في المجالات العقائدية واللغوية، التي تسعى سعيًا حثيثًا لفهم الخطاب الرباني واستنباط أحكامه، ومن أجل ذلك كان القرآن الكريم الموضوع والحافز الذي يشحذ **"..كلّ الفعاليات الفكرية والعقلية التي تسعى إلى البيان والتبيين.."**[2] وبالتالي فإنّ منطق البحث اللغوي لم يبتعد كثيرًا عن المسوغات التي جعلت الأمم الأخرى تتناول لغاتها بالدراسة والتحليل.

إنّ العلوم اللغوية العربية قد نشأت لتفتح على الناس –عربًا وعجمًا– ما أغلق عليهم من كتاب الله تعالى وسنّة نبيه الأعظم لتكون خادمة لمعانيهما شكلاً ومنهجًا نصًّا ومضمونًا، لفظًا ومعنى، ابتكرت له ومن أجله وحوله، **".. ولم يكن ممكنًا لنحوي أو لغوي أن يصنع قواعده دون أن يكون هذا النص نصب عينيه، وفي بؤرة اهتمام من عقله.."**[3] ، وقد أصبحنا اليوم نفهم مصطلح النحو باقترانه المباشر مع اسم سيبويه (179هـ)؛ تلميذ الخليل الفذّ الذي استطاع بذكائه وعبقريته مواصلة وإكمال علم شيخه، فـ[4] **"..ورث ملكته في القياس والابتكار ولزوم طريقته في التوثيق ممّا يسمعه عن العرب وأودع هذا كلّه في "الكتاب"**

---

[1]- صدر الدين الكنغراوي، **الموفّي في النحو الكوفي**. تع: محمد بيطار. دط، دت، مطبوعات المجمع العلمي العراقي. ص*4*.

[2]- سالم يافوت، **حفريات المعرفة العربية الإسلامية (التحليل الفقهي)**. ط*1*، بيروت: *1990*م، دار الطليعة للنشر، *16*.

[3]- نصر حامد أبو زيد، **إشكالية القراءة وآليات التأويل**. ط*2*، بيروت: *1992*م، المركز الثقافي العربي. ص*140-141*.

[4]- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**. دط، بيروت: دط، دار الفكر. ص*113-114* –بتصرّف–

الذي لولاه لضاع علم الخليل في النحو والصرف.." ، فقد كان هذا الكتاب أوّل –كتاب– أُخرج للعرب في النحو؛ تميّز بتحديد موضوعه وبتهذّب منهجه، فأخذ يحمله على استقراء كلام فصحاء العرب، وتجسيده في قواعد رتّبت خصائص اللغة العربية، وأوضحت منطقها وقام بكلّ مقوّماتها ومستوياتها، وبالتالي فإنّ هذه الموسوعة أعظم من أن نحصرها في إطار النحو والصرف العربيين، فمثلما يقول حسن عون: **"..إنّنا نظلمُ الكتاب عندما نعتبره كتابًا في النحو، كما نظلم النحو نفسه حينما نفهمه بذلك المعنى الضيّق الذي يتعارف عليه الناس في عصرنا هذا [..]، كتاب سيبويه يمثّل النحو في شبابه الزاهر ويرويه لنا في صوره الخصبة الأولى، فهو يضمّ إلى جانب النحو كلّ ما له صلة باللغة، ففيه بحوث في الأصوات وطبيعتها، وفيه بحوث في الصرف وفي الاشتقاق، وفيه بحوث في المعاني والبيان والبديع، وفيه بحوث في الأدب وفي النقد الأدبي، وفيه بحوث في الرواية والسند، وفيه بحوث في القراءة والتجويد، وفيه بحوث في فقه اللغة، وفيه..**[1]»، كل هذه الموضوعات التي طرقها سيبويه وشيخه **"..منطلقًا من مبدأ وصفي تعليلي يشكّل مع المبادئ الأخرى الجهاز المفاهيمي للنظرية النحوية التراثية.."**.[2]

تحوّلت فيما بعد إلى علوم قائمة برأسها شكّلت في عمومها وشمولها كلّ الأعمال العربية في كلمة واحدة، وهي: "**الدرس اللغوي العربي**" ويرى مازن الوعر أن هذا المصطلح يشمل على **"..كلّ عملٍ عربيٍ وضعه العرب القدامى من أجل تفسير النص القرآني.."**[3] إذا كان كتاب سيبويه من أشعل فتيل المعرفة اللغوية العربية.

ومازالت عجائبه لا تنتهي؛ فمن زاوية المقارنة العلمية، فإنّه يتقاطع مع كثير من القضايا اللغوية التي تعتبر من اكتشاف العصر تحت مجهر اللسانيات الحديثة فنجد مثلاً: مفهوم الاستقامة النحوية عند سيبويه، هو مفهوم السلامة النحوية والاستحسان (استقامة المعنى *Acceptabilité-grammaticalité*) عند تشومسكي حيث يقول سيبويه في هذا الصدد: **"..فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم محال، وما هو محال كذب.. "**[4] ، وهذا يدّل على نضج الدرس اللغوي العربي من فجر الحضارة العربية الإسلامية.

---

[1]- عوض محمد فوزي، **المصطلح النحوي**. ط2، الجزائر:*1993*م، ديوان المطبوعات الجامعية. ص*79*. –بتصرّف–

[2]- مازن الوعر، **جملة الشرط عند الأصوليين والفقهاء وعلماء الدين في ضوء نظرية النحو العالمي لتشومسكي**. ط*1*، لبنان: *1999*م، دار المتنبي للنشر والتوزيع. ص*9*.

[3]- مازن الوعر، **دراسات لسانية تطبيقية**. *22*.

[4]- أبو بشر بن عثمان بن قنبر سيبويه، **الكتاب**. تح: محمد عبد السلام هارون، ط*3*، القاهرة: *1988*م، مكتبة الخانجي، ج*1*/ ص*25*.

ومن جهة أخرى؛ فقد رأينا فيما سبق أن الكتاب "**كتاب سيبويه**" هو أوّل كتاب أُخرج للناس ليعلن عن أدقّ نظرية لغوية صاغها العرب في حقل المعرفة اللغوية، ولّما كان بهذا الوصف ذهب غيرُ قليل من الباحثين[1] إلى بَثّ الشكوك وإثارة الخلاف، هذا وقد تصدّى مازن الوعر لهذه الأصوات مفسّرًا ومعلّلاً أن التراث اللغوي العربي يختلف تمامًا من حيث طبيعتُه ومنطقه وأهدافه ووسائلُه عمّا كان سابقًا عليه وعمّا كان بعده حتى آجال قريبة، يقول: "**..إنّ شرعية الركام اللغوي العربي القديم يأتي من حقيقة أنّ العرب القدماء أرادوا تفسير الظاهرة اللغوية كما فسّروا بقية الظواهر الإنسانية والطبيعية من أجل خدمة النص القرآني، وبمعنى أدقّ؛ من أجل خدمة المنطق الفلسفي الإسلامي..**"[2] وهذا يعني أن أصحاب الريب لم ينتبهوا إلى الهدف السامي الذي تحرّكت من أجله الهممُ، بل اكتفوا –فقط– بظنّهم الظنّ والقياس عليه ليشمل كلّ المعارف التي أحصاها العقل العربي.

ومثل ما حدث في الدراسات اللغوية فقد عمّموا هذا القياس ليشمل العلوم الدينية الأخرى كالفقه والحديث وأصول الفقه...وغيرهم كثير، ومن أقدم المسائل التي مازال يسمع صرير أقلامها هي: **علاقة النحو العربي بمنطق أريسطو**؛[3] ذلك أن الباحث في تاريخ الفكر العربي يجب لزامًا –**حسب أنصار هذا التوجّه**– أن يجد بقايا من فلسفة أريسطوطاليس ومنطقه ومقولاته وحدوده ماثلة أمامه على شكل لا يستطيع أحد نكرانها، واللافت للانتباه هو ذلك التناقض الصارخ الذي وقعوا فيه عندما أثبتوا هذا الزعم لسيبويه في حين رفضوه في أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو شيخه، وأقرّوا مرغمين على أن مجمل إبداعات الخليل كانت أعمالاً أصيلة تمثل العقلية العربية في أزهى أيامها، وأن ما يوجد من أقوله ليس إلاّ من اختراعه هو والذين سبقوه "**..وأنّ اصطلاحاته عربية ما ترجمت ولا نقلت**..[4]»، فكيف يمكن أن يكون ذلك كذلك وقد أجمع أهل العلم على احتجاج سيبويه بشيخه الخليل في أكثر من ست مائة موضع من الكتاب..[5]!! وحتى لو سلّمنا بإمكانية تأثير هذا

---

[1]- للتفصيل ينظر: فؤاد حنّا الترزي، **في أصول اللغة والفقه**، عندما يقول: «**..إنّ أكثر من ساهم في هذا التطوّر هم الموالي من الفرس وغيرهم..**"، دط، بيروت: دت، مطبعة دار الكتب. ص*105*.

[2]- مازن الوعر، **دراسات لسانية تطبيقية**. ص*22*، كذلك للمؤلّف نفسه "**صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات**" ص *85*.

[3]- عبد الفتّاح الدجنّي، **النزعة المنطقية في النحو العربي**. ط*1*، الكويت: *1982*م، وكالة المطبوعات الجامعية. ص*45-47*.

[4]- ينظر للتفصيل: **محاضرات ليتمان** –نقلاً– عن رافعة الطهطاوي، نشأة النحو العربي، ص*14-15*، نقلاً عن: خديجة الحديثي، **المدارس النحوية**، ط*2*، بغداد: *1990*م، مطبعة جامعة بغداد، ص *41*، كذلك: جون ديبور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**. تر: أبو زيد عبد الهادي، ط*5*، بيروت: *1988*م، دار النهضة العربية للطباعة. ص*5-6*. –بتصرّف–

[5]- تواتي بن تواتي، **المدارس اللسانية في العصر الحديث؛ مناهجها في البحث**. ط*1*، الجزائر: *2008*م، دار الوعي، ص*82*.

النحو بالثقافات الأجنبية وبتجارب الأمم السابقة والمجاورة فإنّ الراجح الممكن كان بعد القرن الثاني للهجرة،[1] أمّا قبل هذا القرن فـ**"..لم يتأثر بمنطق أريسطو لا في مناهج بحثه ولا في مضمونه.."**[2] ، وفيما بعد فإنّه يصعب إثبات أيّ إنكار جازم عن التقاء بين المنطق والنحو العربي؛ إذ يميل الأستاذ الحاج صالح إلى القول إنّ الأوائل الذين مزجوا النحو بالمنطق هم: الفرّاء (*207ه*)، مؤلّف كتاب "**الحدود النحوية**" وهشام بن معاوية (*209ه*)؛ صاحب الكسائي، وقد ألّف كتابًا عنوانه: "**الحدود العربية**" ولا شكّ أيضًا أن الأخفش الأوسط (*214ه*) والمازني (**تـ249هـ**)، الـــذي أخذ عنه أبو العباس المبرّد قد تأثروا بالمنطق الأريسطوطاليسي،[3] إلاّ أن الحاج صالح لا يريد الجزم بذلك لعدم ثبوت أيّ نص يدمغه بالحجّة التاريخية المادية.

ثانيا؛ محاور النظرية اللغوية العربية القديمة: تناول علماء العرب جملة من المفاهيم التأسيسية التي سمحت لهم بالتوغل أكثر في فهم اللغة العربية من بينها النظرية النحوية (**الألفبائية العربية والعلامات الإعرابية ومقولات التراكيب من اسم وفعل وحرف ومختلف تجلياتها وأهم أحكامها**) والنظرية الصوتية (**استخلاص الألفبائية ووصفها وتحديد صفاتها ومخارجها**).

والنظرية المعجمية بمختلف أنواعها (**المعاجم اللغوية والاصطلاحية**) وفروع المعاجم اللغوية (**العاجم الألفاظ ومعاجم المعاني**) وترتيبها وتبويبها وفق مهاج مختلفة (**ألفبائية وأبجدية وصوتية**) والنظرية الدلالة (**تحديد المعاني وفق المباني وتحديد مختلف العلاقات اللغوية كالشمول والتضاد والتنافر والتغيير الدلالي والسياق والمقام ..الخ**).

النظرية البلاغية بمفهومها الواسع، واختصارًا يمكن القول بأنّ النظرية اللغوية العربية قد تناولت تقريبا كل المفاهيم اللغوية فوصفوها وصفا علميا دقيقا وحلّلوها تحليلا منهجيًا مازال معتمد في العربية حتى يوم الناس هذا مع اختلافات طفيفة فقط، ومن أمثلة ذلك:

أ- الحركات الإعرابية؛ حيث وصف علماء العرب منذ الخليل وسيبويه وابن جنّي الأصوات اللغوية العربية وحدّدوها بهذا الشكل الدقيق:[4]

---

[1]- تمام حسّان، **الأصول**. ص*58*. -بتصرّف-

[2]- عبد الرحمن الحاج صالح، **بحوث ودراسات في اللسانيات العربية**. ص*63*.

[3]- المرجع السابق. ص*63*. -بتصرّف-

[4]- مازن الوعر، **نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية**. ص*21*. -بتصرّف-

الترتيب	الحركة		رمزها الخطي	الأبجدية العربية الصوتية	مخرج الصوت وصفاته
1	الضمّة.	ضمّة مشبّعة.	[ـُ (و)]	[Ū]	صوت صائت طويل مجهور مرتفع خلفي مدوّر.
		ضمّة قصيرة.	[ـُـ]	[U]	صوت صائت قصير مجهور مرتفع خلفي مدوّر.
2	الفتحة.	فتحة مشبّعة.	[ـَـ(ا)]	[ā]	صوت صائت طويل مجهور وسطي غير ممدود.
		فتحة قصيرة.	[ـَـ]	[a]	صوت صائت قصير مجهور وسطي غير ممدود.
3	الكسرة.	كسرة مشبّعة.	[ـِ (ي)]	[Ī]	صوت صائت طويل مجهور مرتفع غير مدوّر.
		كسرة قصيرة.	[ـِـ]	[İ]	صوت صائت قصير مجهور مرتفع غير مدوّر.

ب- أقسام الكَلِمْ: لقد قسم علماء العرب الكلام إلى ثلاثة أصناف (**اسم، وفعل، وحرف**)، وليس في كلام العرب على غير هذه الأقسام، وهذا الإقرار –في الحقيقة– مثار جدل بين العلماء منذ أمدٍ بعيد (سواء أكانوا عربًا أم من المستشرقين)؛ فمنهم من يُرى أنها مأخوذة عن الفلسفة اليونانية (**منطق أريسطوطاليس الفلسفي**)،[1] وبالتّالي: قابلوا الاسم بـــ(*Onoma*)، والفعل بـــ(*Rhema*)، والحرف بـــ(*Sundesmos*)، ومنها عن طريق السريان[2] ومنهم من قال: **"..إنّ كلمات (اسم وفعل وحرف) اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت.."**[3]، وهذا القول يعني أن الاصطلاحات التي استعملت في الفكر العربي قصد مقاربة الأوضاع اللغوية، أصيلة وهي من ابتكار منطق اللغة العربية.

خاتمة: لقد مهّدت هذه الحضارات المتناثرة عبر التاريخ إلى قيام عقل لغوي انتهى باللسانيات هذا العلم الذي يسعى جاهد إلى تجاوز العقبات التي وقعت فيها الأمم السابقة وحاولت الاحتفاظ واستثمار الأدوات التحليلية الصحيحة، ولتأكيد أهمية البحث في تاريخ العلوم لفهم العلوم يرى جون غريبين "..أنّ تاريخ العلم لم يعد الآن هواية ومتعة أهل الثراء والفراغ، حيث يمكن لاهتمامات وقدرات امرئ فرد وحده أن يكون لها تأثيرها العميق من حيث الإبداع العلمي مع فريق محدود من الدارسين، لكن أصبح العلم نشاطًا مؤسسيًا ممتدًّا في الزمان، وليس جهد فرد منعزل في برج عاجي، أو مجتمع مستقل مكتف بذاته..ثمّ إنّ النشاط العلمي يتغذى على احضان المجتمع له بفضل نظامه التعليمي وقيمه الاجتماعية والتربوية التي تؤسس للحرية والإبداع.."[4].

---

[1]- عبد الرحمان حاج صالح، **بحوث ودراسات في اللسانيات العربية**. ج1/ص45.

[2]- المرجع السالف: ص45.

[3]- عوض محمد القوزي، **المصطلح النحوي**. ص102.

[4]- جون غريبين، **تاريخ العلم** (1543/2001م). تر: شوقي جلال، ط1، عالم المعرفة، دط، الكويت، 2012م، ج1/ص9